دراسات ميدانية في الأنثروبولوجيا الإقتصادية

أولا: مالينوفسكي ونظام الكولا

وتتضح رؤية مالينوفسكي في تدعيم الدراسات الحقلية والاهتمام بالحياة الاقتصادية في بعض الأبحاث والدراسات الحقلية الأنثربولوجية التي قام بها خاصة دراسته لنظام الكولا، هذا النظام الذي يقوم على مبادلة بعض السلع ذات القيمة الاقتصادية، وكان قد تطرق لتوزيع جزر التروبرياند، وللعلاقات الاقتصادية والقرابية والسياسية التي تقوم بين هذه الجزر، والوظيفة التي يؤديها نظام الكولا في تقوية هذه الروابط والعلاقات، كما تطرق مالينوفسكي إلى كل النظم التي لها علاقة بنظام الكولا، وذلك من أجل فهم أدق لهذا النظام.

انطلاقا من الحقيقة التي حاز بها مالينوفسكي إجماع العديد من الأنثروبولوجيين خصوصا منهم السير جيمس فريزر صاحب الغصن الذهبي والذي دبج كتاب مغامرو المحيط الهادي، بأن مالينوفسكي إضافة إلى إصراره على ضرورة الابتعاد عن أنثروبولوجيا الكراسي الوثيرة والاتجاه إلى العمل الميداني أو الحقلي، فانه كان نبيها ودقيق الملاحظة، سريع تعلم لغة السكان الأصليين لجزر أرخبيل التروبرياند، ونظرا للفترات الزمنية البحثية التي قضاها مالينوفسكي بين سكان الجزر، فقد اكتشف أن سكان جزر الأرخبيل التروبرياندي ليسوا بالقوم الذين يعيشون في عزلة كما كان يعتقد الكثيرون خطأ، فمن خلال ملاحظاته المتكررة توصل مالينوفسكي إلى أنهم ينفردون بمزاولة نشاطا ضخما يمكنهم من صناعة روابط وعلاقات مع سكان الجزر المجاورة لهم. وان كانوا ينحدرون من أصل اثني واحد .

يرى مالينوفسكي أن الكولا لدى سكان جزر التروبرياند تمثل شكلا من أشكال التبادل بين القبائل، إنها مؤسسة تتسم بالاتساع كما أنها معقدة في الوقت ذاته، انه الاتساع الجغرافي ،

إضافة إلى ما تشتمله من نشاطات وطقوس وسلوكيات عديدة، تقوم بصناعة تجميع وثيق بين عدد كبير من القبائل، وتشتمل العديد من الأنشطة التي تشكل في مجملها كلا واحدا.[1]

إن من أبرز مدلولات كلمة " كولا Kula" لدى سكان ميلانيزيا وتحديدا لدى سكان جزر التروبرياند المحيطة بالشاطئ الشرقي لغينيا الجديدة، هي أي الكولا نظام يحكم المبادلات التي تحدث بين القبائل، تطرق إليه مالينوفسكي بالتفصيل الدقيق، فهذا السيستام التبادلي يتم في منطقة الجزر التروبريائدية، وكذا جزر انفلت ودوبو لجهة الجنوب، وتوبيتوب باتجاه أقصى الجنوب ثم الى الجنوب الشرقي حيث جزيرة ميسيما ثم الى شرق جزر التروبرياند حيث توجد لوغلاف و وودلارك. القاسم المشترك الأكبر بين الأقوام السالفة الذكر هو انتماؤهم الى ثقافة واحدة هي ثقافة المايسم، حيث نجد أبرز خاصية بها وهي انتشار النظام الأموسي، ومن الناحية الاقتصادية انتشار ممارسة نظام التبادل كأمر مميز ووحيد، بالإضافة إلى وجود بعض الاختلافات البسيطة على مستوى النسق السياسي. ونظام الكولا التبادلي يقوم على نموذجين من العطاءات ، يقوم الأول بطريقة بينية في إطار القبائل الواحدة أو بين السكان المتجاورين المتقاربين، ويكون النموذج الثاني على مستوى إطار أوسع بكثير. حيث يقع التبادل عبر ركوب رحلات بحرية من جزر لأخرى.[2]

وعملية التبادل هذه في إطار ما يسمى في الأدبيات الأنثروبولوجية الأنجلوساكسونية ب:" الكولا رينغ" مجردة من أي هدف تجاري، إنها عطاءات هدفها تضامني، وتتألف عملية التبادل أساور أو سلاسل تصنع من الأصداف البحرية، يتم تبادل بعضها مقابل بعض لأجل معلوم وتدور باتجاه معاكس دورة كاملة واحدة، وتعود قيمة الأشياء المتبادلة لا إلى منفعتها ورونقها بل إلى بعدها الاحتفالي ذي الرمزيات الدينية المقدسة، والوظائف التضامنية.

1 - MALINOWSKI,Les Argonautesdu Pacifiqueoccidental,Traduit de L'anglais et Présenté par André et Simonne Devyver Préface de SIR JAMES FRAZER,GALLIMARD,Paris,

2 - Pierre Bonte et Michel Lzard,Dictionnaire de l’ethnologie et de l’anthropologie,puf,France,

وكان من أبرز النتائج التي توصل إليها مالينوفسكي في دراسته للاقتصاد التروبرياندي هو وجود نمطين لما سماه:" العمل بشكل مشترك" وهذين النمطين هما[3]:

- العمل المشترك بمعناه الفعلي الذي يضم فريقا من الناس يقومون بانجاز مهام واحدة، لا اختصاص فيها، لكنها تمتاز بأنها ترفع مردودية العمل نظرا لما تشيعه بين أفراد الفر يق الواحد من مزاحمة وتنافس، وهذه ممارسة شائعة وعامة نجدها بشكل خاص في نطاق العمل على استصلاح الحقول والأراضي.
- النمط الثاني هو العمل المنظَم الذي يثوم على تعاون عناصر مختلفة من الناحية المجتمعية والاقتصادية، أي أنه يتصف بتقسيم العمل وتمايز الوظائف، وبناء الزورق في الجزر التروبريائدية خير مثال على هذا النمط من العمل، إذ أنه يتطلب تضافر جهود أناس مختصين بمهام مختلفة.

ثانيا: مارسيل موس ونظام الهبة :

هو مارسيل موس عالم اجتماع وأنثروبولوجي فرنسي، ولد في ايبينال "Epinal"عام 1872ينتمي لعائلة يهودية حاخامية، درس الفلسفة في جامعة بوردو حيث كان خاله ايميل دوركهايم يحوز كرسي تعليم التربية وعلم الاجتماع منذ 1887. كان لفكر ايميل دوركهايم تأثير كبير على مارسيل موس، وكذلك تأثر بأعمال الفيلسوف العقلاني هاملين حيث أخذ منه فكرة بأن كل تصور أو تمثل هو في الأساس علاقة تبرز من خلال اتحاد ثنوية الأضداد، وأخذ من أ.سبيناس ذو لاتجاه الامبريقي التركيز بالبحث عن القواعد و منطقيات العمل البشري ومبادئ تحكم علم العادات.(4)

دراسة التغيرات الفصلية لدى الاسكيمو:

لم يجري مارسيل موس الدراسة الحقلية بنفسه، وإنما قام بالاعتماد على بعض البيانات الحقلية التي قدمها باحثون حقليون آخرون، ثم قام بإجراء تحليلات معمقة بخصوص المادة والبيانات الميدانية التي حصلها بين يديه وهذا شأنه شأن العديد من الباحثين الفرنسيين الذين

[3] - جاك لومبار: مدخل إلى الاثنولوجيا، ترجمة حسن قبيسي،

[4]-Pierre Bonte et Michel Lzard,Dictionnaire de l’ethnologie et de l’anthropologie,puf,France,

ينتمون للمدرسة السوسيولوجية الفرنسية، وكان القيام بالتحليلات المعمقة من أجل الصول إلى صياغة قوانين مبادئ تصلح للتعميم ويمكن تطويرها لاحقا لتصبح نظريات يمكن الاعتماد عليها في تحليل وتفسير ومن ثمة فهما، كما يمكن القيام بالتعميم لتشمل المجتمعات.الأخرى.

يرى مارسيل موس في دراسته عن الاسكيمو أن هذه الدراسة لا يمكن أن نعتبر مجتمع الاسكيمو هدفا في حد ذاته، وإنما وسيلة لتحقيق هدف آخر ، وكان موس قد استغرق مدة عامين في انجاز دراسته معتمدا فيها على أكثر من مائتي مرجع باللغات الفرنسية والانجليزية والألمانية والدنماركية، ومن الدراسات الحقلية التي اعتمد عليها موس في انجاز دراسته هذه، هو المادة الحقلية ثم الاستخلاصات التي توصل إليها فرانس بواس عن الاسكيمو في بافينلاند. ويرى مترجم كتاب موس وهو **" J.Fox,MAUSS .M .Seasonal Variations of the Eskimo :A Study in Social Morphology ;London.1979:** " أن مارسيل موس عالم منظر ذو عقلية تأملية رائعة وهب حياته لتحليل الظواهر الاجتماعية"(5)

ويذكر مارسيل موس في مقدمة الدراسة أنه ركز على إثبات أن للعامل الأيكولوجي محددا في طبيعة الأرض ونوعية المناخ تأثير على مجرى الحياة الاجتماعية لدى الاسكيمو، فكان من بين العناصر الأساسية التي ركز عليها في دراسته هو إبرازه للجانب المورفولوجي أو الشكلي إلي يسود منطقة الاسكيمو ، وتأثير ذلك على وجود أنواع محددة من النباتات والحيوانات دون أخرى، كما تطرق الى علاقة الاسكيمو كبشر مع مختلف النباتات والحيوانات السائدة من حيث نظرتهم ومعتقداتهم وحتى تقديسهم وكيف الاستغلال وتحقيق المنفعة منهما.

لقد أبرز موس وبطريقة جيدة كيف يؤثر العامل الايكولوجي ممثلا وبصورة دقيقة في تعاقب فصلي الشتاء الطويل وفصل الصيف لدى الاسكيمو على كيفيات انتشارهم وتوزعهم وأوقات بروز تمركزهم السكاني وظهور تركيب اجتماعي مميز لديهم، فطريقة الإقامة لدى الاسكيمو

[5] - فتحية محمد ابراهيم، وآخر: مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان" الأنثروبولوجيا

مختلفة جذريا لدى الفرد ولدى الجماعة بين الثنائية الفصلية المتنافرة " الشتاء، الصيف"، ففي فصل الصيف يقل التمركز الاقامي السكني لدى الاسكيمو وبالتالي تكون الأسر أكثر امتداد وانتشارا على الأرض مما يؤدي إلى تمدد مورفولوجي، وعلى العكس تماما في فصل الشتاء يحدث تقلص مورفولوجي حيث تتقارب الأسر فيما بينها مشكلة وحدات سكنية، كما يؤدي التقلص المورفولوجي والتقارب بين الوحدات السكنية التي تضم غالبا عشرات الأسر ، إلى القيام بالاشتراك بينها في الممارسات الطقوسية والأفعال الشعائرية، مما يولد الإحساس لديهم بصناعة ممارسات جماعية ووحدة طقوسية وروحية وبالتالي تشكل حياة اجتماعية ضمن بناء اجتماعي مشكل من مجموعة من العلاقات التفاعلية. وباختصار إن اختلاف الثنائية الفصلية بين الشتاء والصيف يؤدي الى حدوث تباين مورفولوجي لدى الاسكيمو يبرز بشكل جلي من خلال الوحدة الاجتماعية المتمثلة في الأسرة من حيث الانتشار والتباعد صيفا، والاقتراب والتمركز في شكل وحدات شتاء ومدى انعكاس هذا الاختلاف المورفولوجي على جانب الحياة الاجتماعية للاسكيمو.

ومن أبرز الاستنتاجات التي توصل إليها مارسيل موس من خلال التحليل المركز للمعطيات الميدانية حول الاسكيمو هو تلك العلاقة التلازمية بين نوعية الموارد الطبيعية المتوفرة لدى الاسكيمو في زمن أو فصل معين و ظهور أشكال مختلفة من الإقامة لديهم.

كما قام مارسيل موس بإجراء مقارنة بين الاسكيمو وغيرهم من المجتمعات الأخرى حيث توصل إلى مجموعة من النتائج من أهمها نجد(6)

إن الاختلافات الكيفية في أنماط حياة الاسكيمو ترتبط بالاختلافات الكمية التي تطرأ على هذه الحياة خلال فصلي الصيف والشتاء.

---

[6] - **فتحية محمد ابراهيم، وآخر: مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان" الأنثروبولوجيا**

- تزداد شدة التفاعلات الاجتماعية في فصل الشتاء، وهو الوقت الذي يشعر فيه الأفراد بكيانهم كجماعة مترابطة، والعكس تماما في فصل الصيف فهو فصل أو موسم ارتخاء الروابط الاجتماعية.

- إن التغير الذي تعرفه حياة الاسكيمو الاجتماعية هو ظاهرة شائعة في الكثير من المجتمعات.

- إمكانية الخروج بمبدأ عام يشير إلى أن الحياة الاجتماعية لا تستمر على نفس المنوال طوال العام بل تمر خلال مراحل متعاقبة ومنتظمة في شدتها من حيث الارتفاع والانخفاض.

وكانت جملة التنظيرات التي توصل إليها مارسيل موس لها تأثير قوي على العديد من الباحثين سواء من الناحية المنهجية في الجوانب التقنية والأدوات المستخدمة وكيفيات ومدة استخدامها، أو من الناحية المعرفية، حيث صار أغلب الباحثين يولون أهمية بالغة للعامل الأيكولوجي وتأثيراته على الجانب الاجتماعي سواء ما تعلق بالعمليات الاجتماعية أو البناء الاجتماعي. وكمثال على ذلك الاستفادات التي استأنس بها ايفانز بريتشارد عند قيامه بدراسة حول "النوير LE NAIR بالسودان.

لقد كانت إسهامات مارسيل موس متعددة في التأسيس للفكر الأنثروبولوجي، وتقنيات العمل الميداني، ثم إنتاج المعرفة الأنثروبولوجية، خصوصا من خلال غزارة مقالاته التي كتبها ونشر بعضها في مجلة:" الحولية السوسيولوجية" وكانت كتاباته متنوعة حيث كان ينظر وفق زاوية ما بين تخصصية، فقد تناول عديد المسائل فكتب في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، وكانت له أبحاث في اللغة، وعلم النفس، والسياسة... لقد تركز اهتمام مارسيل موس على أربعة محاور كبرى الديني والسياسي، المنهج والظاهرة الاجتماعية، الاقتصادي من خلال التركيز على الهبة وأنظمة التبادل، ورابعا الجسد والإنسان الكلي.

وكان من أبرز المؤلفات التي خلفها مارسيل موس **"مقال حول الهبة Essai sur le don "**وهو عبارة عن مقال مطول بلغ حجمه مائة وثلاثين صفحة نشر في مجلة الحوليات الاجتماعية وكان محل دراسات وأبحاث عديدة ، وان كان موس قد استوحى فكرة دراسته مما كتبه مالينوفسكي حول مغامرو المحيط الهادي، فقد صنع موس التتويج الكامل والتدعيم المباشر والذي كان بمثابة القانون العلمي حول ظاهرة اجتماعية تحتوي أفعالا ذات صبغة اقتصادية كانت غاية في الأهمية وصناعة التأثير لدى سكان القبائل، حيث قدم موس تفسيرا في غاية الأهمية حول صيغ التبادل في المجتمعات القديمة ما قبل الصناعية وعلة أو أسباب ذلك، سواء أكان هذا التبادل عن طريق التعاقد أو بواسطة النقد أو بواسطة الهبة والهبة المقابلة.وبهذه الزاوية البحثية أي الاهتمام بالجانب الاقتصادي تفرد مارسيل موس عن خاله ايميل دوركايم ضمن مشروعهم العلمي والبحثي.

لقد كان هدف موس إيجاد مبادئ للأخلاقيات الاقتصادية التي تحكم الصفقات المعقودة بين البشر في المجتمعات الغابرة، وذلك على سبيل المساهمة في تفسير كيفية قيام مجتمعاتنا بالذات بوظيفتها، حيث حلل ظاهرة التبادل في ميلانيزيا وبولينيزيا وكولومبيا البريطانية، وما استرعى انتباهه هو طابع هذه التبادلات الإرادي الذي يبدو في الظاهر حرا لكنه يظل اضطراريا رغم ذلك، والواقع أن هذه التبادلات أمور تقوم بها جماعات لا تتبادل في ما بينها أشياء وحسب، بل تتبادل إلى جانب ذلك " لياقات، وولائم، وطقوسا... ولقاءات عامة، وفي هذا السياق يأخذ موس مثالا عن صيغة قديمة من صيغ التبادل تعتمدها القبائل الهندية الأمريكية في منطقة فانكوفر في كولومبيا البريطانية وهي صيغة يطلق عليها اسم **البوتلاتش**.[7]

والبوتلاتش في رأيه شأن مجتمعي كلي أو ظاهرة مجتمعية كلية، إذ أنه أكثر من ظاهرة حقوقية ، انه ظاهرة دينية ، أسطورية لأن الرؤساء إنما يجَسدون بأشخاصهم الآباء الأولين، وهو ظاهرة اقتصادية بحيث ينبغي قياس قيمة هذه الصفقات الهائلة وأهميتها والأسباب التي تدعو

[7] - جاك لومبار: مدخل إلى الاثنولوجيا،

إليها، والمضاعفات التي تنشأ عنها، وهو أيضا ظاهرة من ظاهرات المورفولوجيا المجتمعية، فضلا عن أنه ظاهرة ذوقية جمالية" استطيقية" من خلال الأعياد التي يحتفل بها أثناءه، انه شأن يجري التعبير من خلاله دفعة واحدة عن كل أنواع المؤسسات : من دينية وقانونية وخلقية وهذه تكون سياسية وعائلية في آن معا واقتصادية أيضا، وهذه تفترض وجود أشكال خاصة من الإنتاج والاستهلاك والتوزيع فضلا عن الظاهرات الذوقية، اضف إلى ذلك أنها تستنفر المجتمع بأسره والمؤسسات برمتها، فهي والحالة هذه "كليات" سساتيم مجتمعية كاملة. [8]

وفي إطار المقارنة لما كانت عليه الحياة الاقتصادية في مرحلة ما قبل المجتمعات الصناعية، وحياتنا الراهنة، فمن أبرز الانتقادات التي يمكن توجيهها في وقتنا الراهن حسب قول مارسيل موس هو أن المجتمعات الغربية المعاصرة قد حولت من جوهر الإنسان،لقد حولته إلى :" حيوان اقتصادي" ولكننا لسنا جميعا من هذا الصنف، فالتبذير اللاعقلاني للثروات مازال أمرا ينظر إليه في غاية اللامبالاة، خصوصا وأنه يطبع كسلوك بقايا طبقة النبلاء، إن الإنسان الاقتصادي ليس وراءنا بل أمامنا، أين إنسان الأخلاق والواجب وإنسان العلم والعقل، تغير جوهر الإنسان، لقد أصبح آلة، لصيقة بها آلة حاسبة. [9]

وفي حقيقة الأمر يذهب موس أبعد من ذلك في أغلب الأحيان، ففي كتابه :" موجز في الاثنوغرافيا" يؤكد أن العملة بالمعنى الواسع للمصطلح قد وجدت في جميع المجتمعات التي يمكن أن نعرفها، وأن الأسواق قد ظهرت للوجود في معظم هذه المجتمعات، مع بعض الاستثناءات، والشيء نفسه يصدق في نظره على الشيوعية، وفي مقاله حول الهبة يؤكد موس في ما يتصل بمؤسسات مثل أداء الفوائد أن تاريخها لا يعود إلى حضارة ما بين النهرين، أو الحضارة الرومانية، بقدر ما وجدت في بعض المجتمعات " القديمة" وخاصة عند الكواكيوتل، أي في مجتمعات لم تكن تعرف حتى الفلاحة، كما يرى موس أن المجتمعات الإنسانية قد تكون انتقلت من "خدمات عامة" إلى "البوتلاتش" الأرستقراطي ثم إلى السوق الحديثة، كما أن مفهوم

8 – المرجع نفسه: جاك لومبار. ص225، ص226

9 - Mauss, Marcel, Essai sur le don: Forme et raison de l'échange dans les sociétés archaïques,

الإنفاق يتماهى عنده مع تصور للحرية بصفتها انهاكا" هي بدورها بمثابة تدمير لسمات طقوسية" انطلاقا منها يسعى للكشف عن المنطق الخفي للرأسمالية.[10]

إن أحد المفاهيم الكبرى التي اخترعها مارسيل موس هو:" الظاهرة الاجتماعية الكلية" وقوامه اندماج مختلف الجوانب " البيولوجية، الاقتصادية، القانونية، التاريخية، الدينية، الجمالية..." المكونة لحقيقة اجتماعية ما وضرورة إدراكها في كليتها، ولفهم ظاهرة اجتماعية كلية يجب الإحاطة بها كليا وهذا يعني تناولها من الخارج وكأنها شيء، ولكن كذلك من الداخل وكأنها واقع معيش، أي فهمها بالتناوب مثلما يدركها الملاحظ الخارجي عنها ولكن كذلك كما يحياها الفاعلون الاجتماعيون، ومن الناحية المنهجية يبتعد موس عن دوركايم في اشتراط ترك مسافة بين الذات والموضوع ويقترب من الممارسة الاثنوغرافية لمالينوفسكي، ومن خلال مقالته حول "الهبة" 1923 مقارنة ب:" مغامرو غرب المحيط الهادي"1922 واكتشاف مالينوفسكي لنظام:"الكولا" يعمل موس على تفسير وصياغة الكولا وينتقل موس من خلالها من تصور عملية التبادل الرمزي المعمم ويشرع في استخلاص وجود قوانين المبادلة والمقابلة، والاتصال اللذين هما من أخص خصائص الثقافة. [11]

لقد كانت مكانة مارسيل موس في فرنسا مكانة مرموقة جدا، ليس في مجال علم الاجتماع والأنثروبولوجيا فحسب بل في مجال الاجتماعيات عموما، لقد كان صنو فرانس بواس بالولايات المتحدة الأمريكية، لقد كون تلاميذ كانوا بمثابة الورثة. وبتأثر منهم بمشروعه الفكري كان الأثر الايجابي من خلال النهوض بالأنثروبولوجيا أو علم الإنسان.

[10] - مجموعة مؤلفين: الأنثروبولوجيا الفرنسية،

[11] - فرانسوا لابلانتين: نفس المرجع، ص75،ص76